هوية الصراع على فلسطين

الكلمة التي ألقاها رئيس وزراء ماليزيا مهاتير محمد أمام مؤتمر القمة الإسلامية في بوتراجايا، ماليزيا، تستثير سجالاً متجدداً حول مسألة هوية الصراع في فلسطين وعلى فلسطين. هل هو مجرد صراع بين شعبين هما الفلسطيني والإسرائيلي؟ أم هو صراع بين قوميتين هما العروبة والصهيونية؟ أم هو صراع بين دينين هما الإسلام واليهودية؟ أم هو صراع بين القيم الحضارية والإنسانية وبين قوى الشَرّ التي تجد مصلحتها في هتك هذه القيم وسفحها في استلاب حقوق الآخرين؟ إن الصراع الدائر في فلسطين وعلى فلسطين هو في واقع الأمر كل ذلك في آن واحد. وقد جاءت الحرب على الإرهاب، التي تتصدّرها أميركا، ومن ورائها الصهيونية العالمية وإسرائيل، ترجمة عملية لعولمة هذا الصراع من خلال تصنيف المقاومة إرهاباً واستعداء العالم عليها، في غمرة مَدّ جارِف لعولمة كل شيء: الإقتصاد والتكنولوجيا والثقافة لا بل والتطلّعات والمصائر وبالتالي الصراعات.

قال مهاتير في ما قال في كلمته: «الأمة (الإسلامية) تُعامَل باحتقار. يتعرّض ديننا للتشويه. تُدنَّس مُقدّساتنا. تُحتلّ بلداننا وتُجوَّع شعوبنا وتُقتَل». وقال: «إننا في واقع الأمر أقوياء جداً. مليار وثلاثماية مليون مسلم لا يمكن أن يهزمهم بضعة ملايين يهودي». وأضاف: «إن الأوروبيين أبادوا ستة ملايين يهودي من أصل إثني عشر مليوناً (في إشارة إلى التجربة النازية)، لكن اليهود اليوم يديرون العالم بالوكالة ويجعلون الآخرين يُقاتلون ويموتون بدلاً منهم ولأجلهم». هذا مع اعترافه بأنه، «حتى بين اليهود، هناك كثيرون لا يوافقون

على ما يقوم به الإسرائيليون». ودعا المسلمين إلى الاتّحاد إقتصادياً وسياسياً ودينياً لرد «الإهانة». كما دعاهم إلى تحكيم العلم والعقل وعدم التركيز على القوّة حصراً.

لقد تعرّض كلام مهاتير في الإعلام الغربي، وخصوصاً الأميركي منه، للإنتقاد الشديد،إذ ركّز على اليهود دون سواهم، فوُضِع في خانة الخطاب العنصري المُعادي للسامية.

هكذا أثار كلام مهاتير مُجدّداً مسألة هوية الصراع الدائر في فلسطين وعلى فلسطين. فما هي الحقيقة؟

إذا كان الفلسطيني، بحكم المواجهة المباشرة مع العدوان الصهيوني، معني بالصراع مباشرة بحياته وعرضه وبيته وأرضه وكرامته، فهل يضيره أن ينصره أخوه العربي في قضيته؟ والعرب فيهم المسلم وفيهم المسيحي، وهذا ما يجعل هويتهم قومية، لا دينية.

وإذا كان العربي، بحكم وعيه وحدة المصير بينه وبين الفلسطيني، من واقع إدراكه أنّ الأمة العربية أمة واحدة ذات لغة واحدة ومصالح مشتركة وثقافة واحدة وتاريخ واحد، ولا نقول ذات دم واحد، شرذمتها صروف الدهر وأطماع المُستعمر في أرضها وثرواتها ومقدّساتها وجغرافيتها الاستراتيجية، فهل يضير العربي أن ينتصر له المسلم في شتى أصقاع الدنيا؟

وإذا كان المسلم معني بالصراع، بحكم وشائج الدين والثقافة مع قطاع واسع من العرب، يشعر بأنه معني بمصير الأمة العربية ومآل القدس، إلى شعوره أن من أو ما يستهدف العرب إنما يرمي في نهاية المطاف إلى استهدافه هو أيضاً، فهل يضير المسلم أن يكون لقضية فلسطين بُعد إنساني حضاري يُشاركه فيه المواطن أو الرأي العام أو الدول في طول العالم وعرضه؟ خصوصاً إذا كان ذلك مبعثه إدراك أن استهداف فلسطين إنما هو إستهداف للقيم التي لا يستقيم النظام العالمي إلا باحترامها، وهي الحرية والعدالة وسائر حقوق الإنسان في وطنه وحق كل شعب من شعوب الأرض في تقرير مصيره بنفسه.

لذلك كله نقول: إن فلسطين هي في حقيقة الأمر كل ذلك معاً، فهي ذات أبعاد فلسطينية، عربية، إسلامية، إنسانية حضارية. ومن هُنا القول إن

معركة فلسطين يجب أن تُخاض على كل هذه المستويات والصُعد معاً كي تُكسب.

يقول الكاتب الصحافي والمفكّر السياسي الأستاذ رفيق خوري ما مؤداه أن المأزق الحقيقي الذي تواجهه قضية فلسطين في الوقت الحاضر مُرتبط إلى حد بعيد بتحوّل الصراع مع الزمن من صراع عربي إسرائيلي إلى صراع فلسطيني إسرائيلي، وذلك إذ انصرفت سائر الدول العربية، وإلى حَدٍ ما الشعوب العربية، إلى مشاغِلها الذاتية عن شجون قضية فلسطين. في الواقع، إن وجه الصراع بين قوميتين، العروبة والصهيونية، كان ناتئاً يوم كان يتردد أن قضية فلسطين هي قضية العرب المركزية، وكان ذلك خصوصاً في عهد الرئيس جمال عبد الناصر، ويوم كانت المواجهة لا تقتصِر على الفلسطيني فكانت المشاركة العربية الواسعة مشهودة في الثورة العربية خلال الثلاثينات من القرن العشرين، وكانت حروب العام ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣، وكان اجتياح إسرائيل لجنوب لبنان في العام ١٩٧٨، ثم حربها الشامِلة على لبنان في العام ١٩٨٢، وكانت تجربة المقاومة اللبنانية للاحتلال الإسرائيلي على امتداد سنوات طويلة والتي تُوِّجت بالتحرير في العام ٢٠٠٠.

والإنصاف، إنصاف العرب، يقضي بالاعتراف أن القيادة الفلسطينية ساهمت إلى حَدٍ بعيد في النأي بقضية فلسطين عن بُعدها العربي، وذلك إذ غلّبت في حالات كثيرة العصبيّة الوطنية الفلسطينية على الجامع القومي العربي، وانفردت أحياناً كثيرة في إجراء الإتصالات والمحادثات والمفاوضات مع الجانب الإسرائيلي من دون سائر العرب، والشواهد على ذلك كثيرة، منها اتفاق أوسلو المشؤوم الذي وُلِد ميتاً، ومنها تَسرُّع القيادة الفلسطينية في قبول مشروع التسوية المُسمّى خريطة الطريق، مع كونه مشروعاً عقيماً كان سيفضي حتماً إلى الاستسلام وليس إلى السلام العادل، أي بإهدار الحقوق الفلسطينية العربية الأساسية، وأخيراً كانت المفاوضات السرية في سويسرا بين مجموعة من المثقفين الفلسطينيين واليسار الإسرائيلي والتي آلت إلى توقيع مسوَّدة اتفاق بين الجانبين، فسارع شارون إلى رفضه جملةً وتفصيلاً واتّهام الشركاء الإسرائيليين في هذا الاتفاق بالخيانة.

في الواقع، إن القيادة الفلسطينية لم تُبدِ فيما مضى حرصاً كافياً على عروبة القضية وقوميتها، ولا هي تبدي مثل هذا الحرص في الوقت الحاضر. هذا مع العلم أن مصلحة القضية هي في زجّ العرب جميعاً، شعوباً وأنظمة، في كل شأن من شؤونها في كل الأوقات، وبخاصة في البحث عن حلول للقضية وبالأخصّ من خلال التفاوض أو التحادث مع أطراف إسرائيلية. فالتكافؤ في القوّة التفاوضية بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي معدوم عملياً في ظل التفوّق العسكري الإسرائيلي الكاسِح، كما في ظل استقواء إسرائيل بانحياز أميركي أعمى إلى جانبها. فأضعف الإيمان أن يحرص الفلسطيني على الاحتفاظ بالسند العربي له بوجهيه الشعبي والرسمي، والأهم هو الوجه الشعبي. ففي ذلك قوّة للمفاوض الفلسطيني.

خلاصة القول إن فلسطين لا يضيرها أن تكون في آن واحد قضية عربية وإسلامية وإنسانية حضارية. لا بل إن ذلك يُضفي عليها قوّة ومنعة. ولكن تقزيم فلسطين بالتعاطي معها وكأنها قضية الفلسطينيين وحدهم هو في واقع الحال مقتل القضية. لا مشاحة في أن من مصلحة الفلسطيني أن تكون قضيته ذات أبعاد عربية وإسلامية وإنسانية حضارية، ولكن عليه أن يُدرِك أن الطريق إلى ضمان الوجه الإسلامي والإنساني والحضاري للقضية إنما يمرّ بالضرورة في إعادة تعريبها. إن إحياء الوجه القومي للصراع، كونه أساساً صراعاً عربياً صهيونياً، ولا نقول كما يقول مهاتير إنه إسلامي يهودي، هو السبيل الأنجع إلى تحصين مكانة القضية في العالم الإسلامي كما في العالم أجمع. والقيادة الفلسطينية مُطالَبة بدورٍ رِيادي على هذا الصعيد. وكذلك قادة الرأي في كل مكانٍ من الوطن العربي الأرحب. فإعادة تعريب قضية فلسطين تفترض بطبيعة الحال إستنهاضاً للشعوب العربية. والشعوب، إن عاجِلاً أم آجِلاً، كفيلة بمحاسبة قادتها على ما يقومون به أو لا يقومون حِيال القضية العربية. وما كان ذلك ليتأخّر لولا غِياب الديمقراطية وسطوة القمع. فلا غلو في القول ان العرب يواجِهون ثلاث قضايا رئيسة، هي فلسطين أولاً والديمقراطية ثانياً والاتحاد ثالثاً.

[النهار في ٢١/١٠/٢٠٠٣]